# النشـــــــــرة

تصـــدرها مطـــرانية الـــروم الأرثوذكـــس في بـــيروت

العدد ٤٩ / ٢٠٠٠

الأحد ٣ كانون الأول

القديس صوفونيا النبي

اللحن السابع

إنجيل السَحَر الثاني

الـــرســـالـــة (أفسس ٢ : ١٤ ٢٢)

الإنـــجـــيـــل ( لوقا ١٨ : ٣٥ –٤٣)

## + البار سابا

تُعيِّد الكنيسة المقدسة في الخامس من كانون الأول لتذكار أبينا البار سابا المتوشح بالله الذي عاش منذ طفوليته مكرِّساً نفسه للرب ولم يهمل دعوته النسكية رغم جور رفاقه في النسك، بل صبر واحتمل كل سوء فنال غبطة القديسين في ملكوت السموات.

ولُد سابا سنة ٤٣٩ في إقليم قيصرية في بلاد الكبادوك لوالدين تقيين ربياه على محبة الله. عندما كان سابا في الخامسة من عمره سافر والداه إلى

الإسكندرية في مهمة رسمية وتركاه في عهدة خاله. قساوة إمـــرأة خالـــه جعلتـــه يهرب إلى منزل عمه الذي اختلف مع خال سابا على إدارة أملاك أهـــل ســـابا. هذا الأمر جعل سابا يهرب لاحقاً إلى أحد الأديار القريبة وهو شاب صغير.

استقبله رئيس الدير ووضعه مع المبتدئين ليتدرب علـــى الحيـــاة الروحيـــة والفضائل المسيحية. حاول أقرباؤه إقناعه بالعودة إلى العالم والتنعم بأموال والديـــه، لكنه فضَّل أن يعيش فقيراً في بيت الرب من أن يكون غنياً في العالم. وهكـــذا تابع حياته في طريق الكمال المسيحي ساهراً على نفسه، مميتاً أهـــواءه، ممارســـاً الأصوام والتقشفات الصارمة. وقد لمع اسم سابا بين الرهبان رغم كونـــه أصغـــر الرهبان إذ انه فاق الكثيرين كمالاً.

في الثامنة عشرة من عمره، التمس سابا من رئيس الدير أن يذهب إلـــى أورشليم ليزور الأماكن المقدسة ويشاهد النساك والرهبان هناك من أجـــل الإفـــادة الروحية. مكث فصل الشتاء في دير القديس بيساريون حيث أحبه الجميع وطلبـــوا منه البقاء، إلا انه فضَّل الانطلاق إلى البرية، إلى القديس أفتيميوس الكبير، حيـــث العيشة النسكية أشد صرامة. أودعه أفتيميوس أحد الأديار القريبـــة، بيـــن جماعـــة المبتدئين، فانكب سابا على العمل في النهار والصلاة والتأمل في الليل. اتخذ على ذاته الأعمال الأكثر تعباً، كما تعهد خدمة المرضى بتواضع ومحبة. ولـــم يـــهمل الاشتراك في جوقة الدير وسائر النشاطات الروحية.

بعد عامين أراد أحد الرهبان الذهاب إلى الإسكندرية لقضاء بعض الأمـــور العائلية، فسأل رئيس الدير أن يرافقه سابا في رحلته فوافق. وفيمـــا كـــان ســـابا يتمشى في أزقة المدينة التقى بوالديه صدفة وكان لم يشاهدهما منذ خمس عشـــرة سنة. حاولا إقناعه بترك الرهبنة والتمتع بالثروة، لكنه أجابهم «من يضع يده على المحراث وينظر إلى الوراء لا يصلح لملكوت السموات». أعطياه بعـــض الدراهـــم لكي يصرفها على احتياجاته، قبلها لكي لا يجرح محبة والديه، ولما عـــاد إلـــى الدير في برية أورشليم أعطى المال لرئيس الدير كي لا يبقى معه شيء.

لما بلغ الثلاثين التمس سابا من القديس أفتيميوس أن يأذن له بالنسك فـــي مغارة في تلك النواحي، فسمح له. وكان سابا يقضي في المغارة خمسة أيام فـــي الأسبوع دون طعام، يصنع خلالها السلال، ثم يعود في آخر الأسبوع إلى الديـــر. وإذ لاحظ أفتيميوس ثبات سابا بعد خمس سنوات، طلب منه مرافقته في رحلتـــه

النسكية السنوية إلى مكان معمودية يسوع في نهر الأردن، حيث كان يقضي أكثر من شهرين في العزلة.

بعد وفاة القديس أفتيميوس تراخى رهبان الدير في حفظ النظام الصارم، فانطلق سابا إلى برية شرق الأردن حيث عاش القديس جراسيموس سابقاً. حاربه الشيطان بمختلف أنواع التجارب وتراءى له بأشكال مخيفة ليرعبه، إلا انه قهره بالصلاة والاتكال على الله. وهكذا بقي في البرية منقطعاً عن كل بشر أربع سنوات، ثم ألهمه الله أن ينطلق إلى مغارة في جبل فوق وادي قدرون، عاش فيها مدة خمس سنوات حياة أشد صرامة ونسكاً. بعدها أراد الله أن يبدأ سابا بإفادة القريب بإرشاداته ورعايته فأرسل إليه الكثيرين من الراغبين بالنسك على طريقته والعيش تحت إرشاداته.

رفض سابا قبول النساك الجدد بسبب تواضعه، إلا ان المحبة دفعته إلى الخضوع لاحقاً، فصار لديه أكثر من سبعين راهباً يعيشون في بناها لهم سابا حول كنيسة صغيرة يقصدونها للصلاة. وكان كاهن يأتي من الجوار لخدمتهم، لأن سابا كان يرفض أن يُرسم كاهناً ليحافظ على روح الاتضاع فيه. تكاثر عدد الرهبان جداً وكان سابا يهتم بكل واحد دون إهمال، وكانت يد الله معه. واتفق انه عثر على مغارة في جبل قريب تصلح لأن تكون كنيسة، إلا انه رفض تحويلها إلى كنيسة كي لا يُجبَر على قبول الكهنوت. فذهب بعض الرهبان إلى البطريرك الأورشليمي شاكين ومطالبين به كاهناً. فاستدعاه البطريرك وأقامه كاهناً بأمر الطاعة. وكان سابا في الثالثة والخمسين.

ذاع صيته فتوافد إليه الكثيرون ومن بينهم الأسقف يوحنا الصامت الذي أراد أن يتنسك، ووالدته التي كانت قد ترمّلت وجلبت معها أموالها، فبنى سابا مبنيين، واحد لإضافة الغرباء وواحد للمرضى.

بعد وفاة البطريرك الأورشليمي عام ٤٩٣ تحرك عدد من الرهبان ضد سابا، ففضل سابا ترك المكان والذهاب إلى عمق القفار. اختار مغارة يعيش فيها أسد. ترك المكان لسابا. ولم يمضِ زمنٍ طويل حتى عرف به الكثيرون فأتوا إليه طالبين النسك والإرشاد. أما الرهبان الثائرون ضده فأشاعوا أن وحشاً افترس سلبا وطالبوا برئيس جديد عليهم. لكن البطريرك الجديد أصر أن يبقى سابا رئيساً على الرهبان بعدما تأكد أنه ما زال على قيد الحياة. فاستدعاه وأمر كل من يخرج عن طاعته بالذهاب إلى مكان آخر. خرج قسم منهم، أما سابا فلم يهملهم بل

كان يزورهم ويعطيهم كل ما يحتاجونه من معونة مادية وروحية. وأقام واحداً منهم رئيساً عليهم في منطقتهم.

لما برزت الهرطقات في الكنيسة خرج سابا من منسكه مدافعاً عن الإيمان القويم، وتوجّه، رغم شيخوخته، إلى القسطنطينية بطلب من بطريركه لمقابلة الملك المناصر للهراطقة، وأوضح للملك أخطاء الهراطقة وأقنعه بضرورة رفع الإضطهاد عن كنائس فلسطين. كما توجه مرة أخرى في العام ٥٢٧ لمقابلة الإمبراطور الجديد بعدما وشى الهراطقة بالبطريرك الأورشليمي وأوردوا ضده الأكاذيب، فاستجاب الملك لمطاليبه، ورفض هدية الملك المالية لرهبانه لأنه أراد أن تبقى العناية الإلهية وحدها تعتني بالرهبان. عاد القديس سابا إلى فلسطين مثابراً على الأعمال الروحية إلى ان رقد بسلام في ٥ كانون الأول سنة ٥٣٠ وكان قد بلغ الثالثة والتسعين من عمره. فبشفاعاته أللّهم ارحمنا وخلّصنا آمين.

## + الخطيئة الأصلية ونتائجها

لعل الحرية هي أهم صفات «صورة الله ومثاله» في الإنسان وهي ما تميِّزه عن باقي المخلوقات. لقد خلق الله الإنسان حراً ووضع فيه عقلاً يميِّز بين الخير والشر، أي ان الله زرع فيه نعمتي الحرية والتمييز. لكن الإنسان أساء استعمال حريته ولم يُثمِّر نعمة التمييز بل انقاد وراء أهوائه وابتعد بإرادته وبملء حريته عن الله. سقط وأسقط معه الخليقة كلها: «بإنسانٍ واحدٍ دخلت الخطيئة إلى العالم» (رو ٥:١٢).

لقد خلق الله الإنسان ليكون **صورة الله المخلوقة**، ولكي يحيا في وحدة وشركة مع الله ويتحد بالألوهة، ولكي يتسلّط على كل الخليقة. فشل الإنسان في مهمته وسقط وهذه هي الخطيئة الأصلية. أخطأ هدفه، كما تعني كلمة خطيئة حرفياً باليونانية Amartyia، أي فشل في أن يكون ما يجب أن يكون، وأن يفعل ما عليه فعله. سقوط الإنسان يعني فشله في «دعوته» الإلهية، ليكون مشاركاً في الألوهة بالنعمة.

خطيئة الإنسان الأصلية انه أراد أن يجعل من نفسه إلهاً بالانفصال عن الله، ولم يعِ انه كالطفل بحاجة إلى احتضان الله لكي ينمو ويصبح كاملاً بحسب الدعوة الموجهة إليه. كان عليه أن يتربى على الألوهة شيئاً فشيئاً للوصول إلى الكمال، لكنه فضّل بملء حريته أن يختار الطريق الأسهل، أن يستقل عن الله

وفصل نفسه عن الله. هذا ما نستنتجه من القصة اللاهوتية الموجودة في سفر التكوين (الإصحاح ٢ و٣) التي تجسد صورة فصل الإنسان نفسه عن الله.

بُعدُ الإنسان عن الله وضعه كاتب سفر التكوين في قالب قصصي لاهوتي ليوضح لنا معنى محاولة الإنسان أن يجعل من نفسه إلهاً بالإنفصال عن الله. ما يجب ذكره ان كاتب سفر التكوين كان يكتب بعد ملايين وربما مليارات السنين من الخلق. عاش في عالم بعيد عن الله وخاطئ، لا يعمل بحسب وصاياه، فكتب قصة لاهوتية تعبِّر عن هذا الابتعاد وتعرض لأسبابه.

جاء في سفر التكوين: بعدما خلق الله آدم أخذه «ووضعه في جنة عدن ليعملها ويحفظها. وأوصى الرب الإله آدم قائلاً: من جميع شجر الجنة تأكل أكلاً، وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت» (٢: ١٥-١٧). ما هو المعنى الرمزي لشجرة معرفة الخير والشر؟ إنها الحد الفاصل بين المخلوق والخالق، لأن الله وحده يعرف الخير والشر بالمطلق، والخير ليس سوى إرادته هو. وتنصيب الإنسان نفسه حَكَماً للخير والشر يعني انه «جعل نفسه إلهاً». هذا ما نستنتجه عندما أتى الشيطان بصورة الحية إلى حواء وأغواها، مقنعاً إياها بأن الله منعها وآدم من الأكل من الشجرة لأن «الله عالم انه يوم تأكلان منه تنفتحُ أعينكما وتكونان كالله عارفين الخير والشر» (تكوين ٣:٥). حيلة الشيطان أنه أقنع حواء بأنهما يستطيعان أن يصيرا آلهة بدون معونة الله، وهكذا حصل. أكلت حواء ومعها آدم من ثمر الشجرة (ولا نعرف إذا كان تفاحاً أم لا!!) وعصيا الله الذي كان يريد أن يربّيهما في المعرفة وليصلا إلى مكان أفضل.

مأساة الإنسان انه استعمل الحرية التي منحه إياها الله لرفض الطريق الذي صمّمه له الله، وأراد أن يستغني عن محبة الله ويتخلّص مما اعتبره وطأة الله عليه، فوضع إرادته مقابل إرادة الله وعصى الله ففصل نفسه عنه بإرادته. أراد أن يكون إلهاً بمعزل عن الله فما كان من الله إلا ان أخرجه من جنته، من مكان سكناه، وتركه يدبّر شؤونه بنفسه، فصار الإنسان يمرض ويفسد ويموت لأنه تحوَّل عن الله الذي هو الخلود والحياة.

مهما يكن من تفاصيل واردة في سفر التكوين، ومهما يكن من تفاسير، يبقى المهم وهو ان الإنسان أخطأ هدف دعوته الأصلية. عصى الله بتكبره وحسده وعدم اتضاعه وعدم شكره. تجاوز وصية الله، و«كل من يفعل الخطيئة يفعل

التعدي أيضا. والخطيئة هي التعدي» (١ يو٣: ٤). طبعا يبقى الإنسان مخلوقا على صورة الله التي لا تتغير، ولكنه فشل في حفظ صورته ومثاله الإلهيين نقيين، شوه بشريته بالشر فلم تعد انعكاسا نقيا لله. كذلك العالم يبقى جيدا، لكنه يحمل نتائج خطيئة من وضعه الله سيدا عليه، ويعاني مع الإنسان في حزن وفساد. عبر خطيئة الإنسان سقط العالم تحت حكم الشيطان، و«العالم كله قد وضع في الشرير» (١ يو٥: ١٩).

حسب اللاهوت الأرثوذكسي، الموت والخطيئة والعذاب والشر والشيطان تسير معا، ولا وجود لأحدها دون الآخر، وكلها نتيجة عصيان الإنسان لله وفقدان الشركة معه. الخطيئة تولد الخطيئة والشر يولد الشر ويجلبان الفساد والموت لكل إنسان وخليقة.

ابتعاد الإنسان عن الله كان له نتائجه. أولى النتائج كانت الموت الروحي، أي انفصال الإنسان عن الله، مصدر كل صلاح. خرج الإنسان من البراءة الأولى: «فانفتحت أعينهما وعلما انهما عريانان، فخاطا أوراق تين وصنعا لأنفسهما مآزر» (تك ٣:٧). صار الإنسان بحاجة إلى لباس لأنه فقد النعمة التي كانت تغطيه وحل مكانها الهوى والشهوة. صارت الغريزة تسيطر عليه وهو يسعى لإشباعها: شهوة الأكل والشرب والمال والسلطة إلخ

تصدعت صورة الله في الإنسان فصار الكذب سيد الإنسان إذ ألقى آدم اللوم على المرأة والمرأة لامت الحية. دخل القتل إلى حياة الإنسان، قتل قايين لهابيل، كما تصدعت العلاقة بين البشر، وبعدما كانت حواء معينة لآدم، وهي لحم من لحمه وعظم من عظامه، صار الرجل يتسلط على المرأة: «وقال للمرأة تكثيرا أكثر أتعاب حبلك، وبالوجع تلدين أولادا، وإلى رجلك يكون اشتياقك وهو يسود عليك» (تك ٣:١٦). لم تعد علاقتهما علاقة محبة بل علاقة سيادة وخضوع.

تأثرت الطبيعة أيضا بالسقوط: «ملعونة الأرض بسببك. بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك وشوكا وحسكا تنبت لك وتأكل عشب الحقل. بعرق وجهك تأكل خبزا حتى تعود إلى الأرض التي أخذت منها، لأنك تراب وإلى التراب تعود» (تك ٣: ١٧-١٩). بسبب فقدان الضوابط الروحية والأخلاقية صار الإنسان يعبث بالطبيعة، فانتشر التلوث وزادت الأمراض واضطربت نواميس الأرض الطبيعية، الأمطار والفصول، وصار بين الإنسان والكون عداء.

أما النتيجة المباشرة للخطيئة فكانت الموت الجسدي: «بعرق وجهك تأكل خبزاً حتى تعود إلى الأرض التي أُخذتَ منها، لأنك تراب وإلى التراب تعود» (تك ٣:١٩)، وكان هذا نتيجة للوصية «لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت» (تك ٢:١٧). لما ابتعد الإنسان عن الله وخضع لمن له سلطان الخطيئة، أي الموت، فَقَدَ نعمة الخلود التي كان حاصلاً عليها في الخلق، لأنه ابتعد عن الخالد، مصدر الخلود والبقاء. ولما تزعزعت نواميس الطبيعة ودخل المرض والفساد إلى الكون صار الموت طبيعياً، وصار الإنسان يموت. الموت هو النتيجة الأقسى للخطيئة: «آخر عدو يُبطل هو الموت» (١ كو ١٥: ٢٦).

ما يجب أن نشدِّد عليه أخيراً ان صلتنا نحن بخطيئة آدم، الجد الأول، ليست صلة وراثية، فنحن لا نرث الخطيئة الجَدِّية بيولوجياً عبر الولادة، بل هي صلة جو يتربى الإنسان فيه. نحن نرث نتائج الخطيئة الأصلية. صرنا نولد في جو ملؤه الخطيئة كما يقول كاتب المزامير: «وبالخطيئة ولدتني أمي» (مز ٥٠:٢٠). ما نرث عن آدم هو القابلية للموت والفساد. والإنسان يصبح مذنباً وخاطئاً بمقدار ما ينسج على منوال آدم بملء اختياره.

## + عيد القديس نيقولاوس

في مناسبة عيد أبينا الجليل في القديسين نيقولاوس العجائبي أسقف مدينة ميرا في ليكية يترأس سيادة راعي الأبرشية المتروبوليت الياس صلاة الغروب عند السادسة من مساء الثلاثاء ٥ كانون الأول وخدمة القداس الإلهي عند التاسعة والنصف من صباح الأربعاء ٦ كانون الأول في كنيسة القديس نيقولاوس في الأشرفية وسوف يرقّى الشماس قسطنطين نصار، خلال القداس، إلى درجة الكهنوت.

## + تأمل

في البدء، ينجذب الإنسان صوب الله بعطية النعمة؛ وإذ يستقر في ذلك المدار تبدأ فترات التجربة الطويلة، فتوضع حريّة الإنسان وثقته بالله على المحك «وبقسوة» في بعض الأحيان. في البدء، تستجاب الأدعية لحظة النطق بها صلاة، إذا كانت مهمّة. لكن، عندما تحل فترات التجربة، فكل شيء يتبدّل. وبإمكاننا القول أن السماء تنغلق مطبقة أسماعها لأية صلاة. وكل ما في حياة المسيحي يصبح صعباً وموقف الناس يتبدّل منه، فيتوقفون عن التعامل معه باحترام، ولا

يسامحونه بما يغفرون للآخرين، يقيّمون عمله أدنى من المستوى وتضعف مقاومة جسده أمام المرض. كل شيء يصير ضده، الطبيعة، الظروف والبشر كلّهم يتحوّلون ضدّه. أما وزناته، فلا تجد لها أي مجال للتطبيق. بل أكثر من ذلك، يتحمّل ضربات وهجومات شيطانية قاسية وقادرة. أما العذاب الأشد الذي لا يحتمل، فهو تخلّي الله عنه. هكذا تصل عذاباته إلى نقطة الطفاح، ويكون هذا الإنسان مضروباً ومصاباً في كل زوايا كيانه.

أهل يتخلّى الله عن الإنسان؟ أهل هذا ممكن؟ فبدل أن يحس كما في الابتداء بإطلاقية العون الإلهي، يتحرّك حسّ جديد في نفسه: يغيب الإله ويغرّب ويصير غير مدرك، وأبعد من النجوم، فتضيع كل النداءات الموجهة إليه في الأمداء. أما النفس فتكثّف صراخها إلى الله، لكنها لا تعود ترى لا عونه ولا حتى انتباهه. كل شيء يصير مؤلماً، ولا نعود نحصل عليه، إلاّ بأثمان وبجهود غير متكافئة تتخطى كل القوى والطاقات البشريّة. أما الحياة فتتحوّل إلى عذابات متكرّرة ومتتالية، ويبدأ الإنسان بالإحساس بأن غضب الله ولعناته كلها منصبّة عليه. وبعد فترة، وبعد عبور هذه التجارب، يفهم الإنسان بأي حفظ كان محمولاً من كل الجهات وفي جميع مرافق حياته وكيفيّة عمل العناية الإلهية التي لا تدرك.

إننا نعرف، ومنذ آلاف السنين، ومن جيل إلى جيل، أن الله إذ يرى أمانة نفس الناسك، كما عأيش «أيّوب»، فإنه ينقله عبر الهاوية إلى قمم لا يصلها إنسان آخر. فكلّما ازدادت أمانة الناسك وثقته بالله، بترسخ غير متزعزع، كلّما عظمت التجربة. هكذا تكمّل خبرته التي بإمكانها أن تطال مطلق الحدود التي يمكن لإنسان ما إن يطالها ويتصوّرها.

كلّما بقيت جذور الكبرياء متكمّشة في أرض الإنسان، يبقى معرضاً إلى السقوط في اليأس الساحق الذي بإمكانه أن يصير جهنمياً. وهذا الكبرياء اليائس يحوّل كل فكرة حقة حول الله إلى فكر خاطئ ويبدّد كل طرق الخلاص. إن الروح المتكبّرة المتمرّدة، الغارقة في عذابات وظلمات الجحيم، ترى في الله سبباً لكل عذاباتها وآلامها وتعتبره مسبب القسوة. وإذ تكون هذه النفس محرومة من رؤية الحياة الحقة مع الله، ترى كل شيء مشوّهاً ومعوجاً وذلك بالنسبة لحالتها ولعذاباتها المرضيّة، فتبدأ بكره حياتها بشكل عام، وكل ما في الكون. وبما أن هذه النفس تكون ساكنة خارج النور الإلهي، فإنها تأتي بسبب يأسها إلى الله

وتسقط عليه حالتها فيصبح حتى وجود الإله ذاته شيئاً سخيفاً، ويزداد كرهها للكل وشيئاً فشيئاً تتغرّب عن الله.

إن ناس الإيمان يتملّصون من هذا اليأس ومن هذا الكره، لأنه بالإيمان يخلص الإنسان، يخلص الإنسان بالإيمان وبحب الله وبرحمته وبالإيمان بكلمته وبالإيمان بشهادة آباء الكنيسة. من الممكن أن لا يعيش غالبيّة المؤمنين المسيحيين قيامتهم الحقّة، لكن إيمانهم بها يخلّصهم. كان الستاريتز يتكلّم كثيراً عن هذا الإيمان مستشهداً بكلمات السيّد: «طوبى للذين آمنوا ولم يروا» (يو ٢٩:٣٠) وستأتي ساعة يخرج هذا الإيمان بالإنسان من الظلمات ومن قيود عبوديّته، ويقوده في رحاب الحياة الحقّة غير الفاسدة حيث يشعّ مجد لا تعرفه الأفكار البشريّة التي يصوغها الإنسان عن ذلك البهاء والمجد.

القديس سلوان الآثوسي